﴿* وَيَٰقَوۡمِ مَالِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ٤١ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ٤٢ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ٤٣﴾ [غافر: 41 - 43]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

حِـرْصُ الـدُّعـاة على بذل النُّصح لأقوامهم

لمّا ذكرت الآيات السّابقة أنَّ مؤمن آل فرعون رأى تماديَ قومه في الكفر والطُّغيان؛ أعاد عليهم النُّصح مرَّة أخرى في هذه الآيات، فدعاهم إلى الإيمان باللّه الَّذي يوجب النَّجاة والدُّخول في الجنّات[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلنَّجَوٰةِ﴾: أصلُ النَّجاء يدلُّ على الانفصال مِنَ الشَّيء، ومِن ذلكَ قولُهم: نجا فلانٌ مِن فلانٍ، وأنجيتُهُ ونجَّيتُهُ[2]، والنَّجْوةُ: المكانُ المرتفعُ المنفصلُ بارتفاعِهِ عمّا حولَهُ، وقيل: سُمّي لكونه ناجيًا مِن السَّيل[3].

2) ﴿لَا جَرَمَ﴾: (جرم) أصلٌ يدلُّ على قطعِ الثَّمرة عن الشَّجرة[4]، ومِن ذلكَ قولُهم: ثَمَرٌ جَريمٌ، أي: مقطوعٌ، ومعنى جَرَمَ في قولِهم: لا جرمَ: كَسَبَ، أو جَنى[5]، أو حقَّ، أو وجبَ، أو حقًّا[6]، وهو المرادُ هنا[7].

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 25/ 205.
(2) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (نجو).
(3) الزبيدي، تاج العروس: (نجو).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جرم).
(5) الراغب، المفردات: (جرم).
(6) الجوهري، الصحاح، والسمين، عمدة الحفاظ: (جرم).
(7) المراغي، تفسير المراغي: 24/ 73.

3) ﴿دَعۡوَةٌ﴾: (دعو) يدلُّ على إمالةِ الشَّيءِ إليكَ بصوتٍ وكلامٍ يكونُ منكَ[1]، والدُّعاء إلى الشيء: الحثُّ على قصده، والدُّعاءُ: الرَّغبةُ إلى اللهِ فيما عندَهُ مِنَ الخيرِ، والابتهالُ إليهِ بالسُّؤالِ[2]، وتقولُ: دَعَوتُهُ؛ إذا سألتَهُ، وإذا استغثتَهُ[3]، ومعنى ﴿لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ﴾: ليسَ لهُ استجابةُ دعوةٍ لِمَنْ يدعو إليهِ[4].

4) ﴿مَرَدَّنَآ﴾: (ردد) أصلٌ يدلُّ على رَجْعِ الشَّيءِ، وسُمّيَ المرتدُّ بذلكَ؛ لأنَّهُ ردَّ نفسَهُ إلى الكفرِ[5]، والرَّدُّ: صرْفُ الشَّيءِ بذاتِهِ أو بحالةٍ مِن أحوالِهِ[6]، ويقالُ: استردَّ الشَّيءَ، أي: استرجعَهُ[7]، والمرادُ بالمَرَدِّ في قوله: ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾: المرجعُ[8].

5) ﴿ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾: (سرف) أصلٌ يدلُّ على مجاوزةِ الحدِّ[9] في كلِّ فعلٍ يفعلُهُ الإنسانُ، واشتهرَ ذلكَ في الإنفاقِ[10]، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ﴾ [الفرقان: 67]، ويقال تارة اعتبارًا بالقدر، وتارة بالكيفيَّة، ويُطلَقُ الإسرافُ أيضًا على التَّقصيرِ في طاعةِ اللهِ تعالى[11]، والمرادُ بالمسرفينَ في قوله: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾: الَّذينَ تجاوزوا الحدَّ في أمورهم، فيغلبُ شرُّهم على خيرِهم[12].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يتابعُ مؤمنُ آلِ فرعونَ نُصْحَ قومِهِ، فيقولُ: ما بالي أدعوكُم إلى النَّجاةِ، وهي عبادةُ اللهِ وحدَهُ لا شريكَ لهُ، وتصديقُ رسولِهِ، وتدعونَني إلى عمل أهل النّارِ، وهو الكفرُ والشِّركُ، تدعونَني لأشركَ باللهِ في عبادتِهِ أوثانًا لا يدلُّ على عبادتِها نقلٌ ولا عقلٌ، وأنا أدعوكُم إلى عبادةِ مَن استجمع صفات الألوهيَّة من كمال القدرة والغلبة والتَّمكُّن من

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دعو).
(2) الزبيدي، تاج العروس: (دعو).
(3) الراغب، المفردات: (دعو)، والسمين، عمدة الحفاظ: (دعو).
(4) المراغي، تفسير المراغي: 24/ 73.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ردد).
(6) الراغب، المفردات: (ردد).
(7) السمين، عمدة الحفاظ: (ردد).
(8) المراغي، تفسير المراغي: 24/ 73.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزبيدي، تاج العروس: (سرف).
(10) الراغب، المفردات، والزمخشري، أساس البلاغة: (سرف).
(11) السمين، عمدة الحفاظ: (سرف).
(12) المراغي، تفسير المراغي: 24/ 73.

المجازاة، فهو العزيز في انتقامِهِ ممَّن كفرَ بهِ، الغفّار لمَن تابَ إليهِ بعدَ معصيتِهِ إيّاهُ.

أهلُ الحقِّ أهل النَّجاة، وأهلُ الشِّركِ أهل الهلاك

ولا شكَّ أنَّ الَّذي تدعونَني إليهِ مِنَ الأوثانِ لا يستجيبُ الدُّعاءَ في الدُّنيا ولا في الآخرةِ؛ لأنَّهُ جمادٌ لا ينطقُ، ولا يفهمُ شيئًا، ولا شكَّ أنَّ مرجعَنا بعدَ مماتِنا إلى اللهِ، وأنَّ المشركينَ هم أصحابُ نارِ جهنَّمَ الخالدونَ فيها[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سرُّ مجيء الواو في هذا النِّداء ﴿*وَيَٰقَوۡمِ﴾ دونَ السّابقِ:

التَّلويحُ بالوعيدِ لتاركِ سبيلِ الرَّشادِ

جيءَ بالواوِ في قولِهِ تعالى هنا: ﴿*وَيَٰقَوۡمِ مَالِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ﴾، ولم يُؤتَ بها في قولِهِ في النِّداءِ السّابقِ، وهو قولُهُ: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ﴾ [غافر: 39]؛ لأنَّ السّابقَ تفسيرٌ وبيانٌ لقولِهِ: ﴿أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ٣٨﴾ [غافر: 38]، فلم يُعطَفْ عليهِ؛ لأنَّ البيانَ عينُ المبيَّنِ، وبينَهما كمالُ الاتِّصالِ، وأمّا ما هنا؛ فليسَ تفسيرًا للهدايةِ إلى سبيلِ الرَّشادِ، بل هو تلويحٌ بالوعيدِ، ولذلكَ عُطِفَ على ﴿يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ﴾ [غافر: 38][2].

وممّا يُذكر في سرِّ مجيء العطف مع قوله: ﴿*وَيَٰقَوۡمِ مَالِيٓ﴾ الإشارة إلى أنَّ هذا النِّداء اشتمل على ما يقتضي في لغتهم أنَّ الكلام قد تخطَّى من غرض إلى غرض، وأنَّه سيطرق ما يغاير أوَّل كلامه مغايرة ما يشبه مغايرة المتعاطفين في لغة العرب[3].

بلاغةُ تكرارِ النِّداءِ:

قومُ مؤمنِ آلِ فرعونَ غارقونَ في الغفلةِ

كُرِّرَ النِّداءُ بقولِهِ تعالى: ﴿*وَيَٰقَوۡمِ﴾ معَ تقدُّمِهِ فيما سبقَ؛ زيادةَ تنبيهٍ لهُم، ولإيقاظهم عن سَنَةِ الغفلةِ[4]، والاهتمام بالمُنادَى

(1) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 390 - 391، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 145، والمراغي، تفسير المراغي: 24/ 75.

(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 169، والطيبي، فتوح الغيب: 13/ 516، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 324.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 152.

(4) الزمخشري، الكشاف: 4/ 168.

لهُ، والمبالغة في توبيخِهم على ما يقابلونَ بهِ نُصْحَهُ[1]، بجعْلِهم لا يفيدُ فيهِم، ولا يُسمِعُهم نداءٌ واحدٌ[2]، وفيه دلالة على أنَّه سيرتقي باستدراجهم في درج الاستدلال إلى المقصود بعد المقدِّمات، فانتقل هنا إلى أن أنكر عليهم شيئًا جرى منهم نحوه، وهو أنَّهم أعقبوا موعظته إيّاهم بدعوته للإقلاع عن ذلك، وأن يتمسَّك بدينهم، وهذا شيء مطويٌّ في خلال القصَّة دلَّت عليه حكاية إنكاره عليهم[3].

سرُّ النِّداءِ بـ (يا) دونَ غيرِها:

الغافلُ بمنزلةِ البعيدِ

اختيرَ في قولِهِ تعالى: ﴿*وَيَٰقَوْمِ﴾ النِّداءُ بـ (يا) دونَ غيرِها من أدواتِ النِّداءِ؛ لأنَّها تُستعملُ لنداءِ البعيدِ، وفي التَّعبيرِ بها إشارةٌ إلى أنَّ قومَهُ لفَرْطِ غفلتِهم بمنزلةِ البعيدِ القاصي الَّذي يُنادَى ليُقبِلَ من بعيدٍ.

نكتةُ النِّداءِ بوصفِ القومِ:

مَن كانَ مِنَ القومِ رعَى مصالحَهم

اختيرَ وصفُ القومِ في النِّداءِ في قولِهِ تعالى: ﴿*وَيَٰقَوْمِ﴾؛ لِما يدلُّ عليهِ مِنَ التَّلطُّفِ، ببيانِ أنَّ المُنادى هم قومُهُ وعشيرتُهُ، يعلمُ وجهَ خلاصِهم، وأنَّ نصيحتَهم عليهِ واجبةٌ، فهو يتحزَّنُ لهُم، ويتلطَّفُ بهِم، ويطلبُ بذلكَ ألّا يتَّهموهُ، فإنَّ ما يسرُّهم يسرُّهُ، وما يَغُمُّهم يَغُمُّهُ، فعليهِم أن يستجيبوا لنُصْحِهِ[4].

نكتةُ الإضافةِ في ﴿*وَيَٰقَوْمِ﴾:

أنتم منّي وأنا منكم

إضافةُ القومِ إلى ياءِ المتكلِّمِ المحذوفةِ في قولِهِ ﷺ: ﴿*وَيَٰقَوْمِ﴾؛ لإظهارِ تودُّدِ مؤمنِ آلِ فرعونَ لقومِهِ وتلطُّفِهِ بهِم، وفي ذلكَ مزيدُ حثٍّ لقومِهِ على الإقبالِ على الخطابِ، وتلقّيهِ بالقبولِ، وفي هذا تعليم للدُّعاة أن يدخلوا باب الدَّعوة من باب التَّودُّد والتَّقرُّب واللّين لا من باب الغلظة والشِّدَّة.

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 58.
(2) الخفاجي، عناية القاضي: 7/ 372.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 152.
(4) الزمخشري، الكشاف: 4/ 168.

غرضُ الاستفهامِ في قوله: ﴿مَالِيٓ﴾:

حالُ قومِ مؤمنِ آلِ فرعونَ مناطُ تعجُّبٍ وتوبيخٍ

الاستفهامُ في قولِهِ تعالى: ﴿مَالِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ ليسَ على حقيقتِهِ، بل هو للتَّعجُّبِ والتَّوبيخِ، وليسَ مناطُ التَّعجُّبِ والتَّوبيخِ دعوتَهُ إيّاهم إلى النَّجاةِ، بل هو دعوتُهم إيّاهُ إلى النّارِ[1]، فهو يعجبُ مِن هذهِ المقابلةِ الحادَّةِ بينَ الموقفينِ[2]، كأنَّهُ قيلَ: أخبِروني كيفَ هذهِ الحالُ: أدعوكُم إلى الخيرِ، وتدعونَني إلى الشَّرِّ؟[3].

دلالةُ اللّامِ في ﴿مَالِيٓ﴾:

التَّوبيخُ ثابتٌ لقومِ مؤمنِ آلِ فرعونَ

اللّامُ في قولِهِ تعالى: ﴿مَالِيٓ﴾ للاختصاصِ، وأصلُ استعمالِ (ما لي أفعلُ؟)، و(ما لي لا أفعلُ؟) ونحوِهِ أن يكونَ استفهامًا عن فعلٍ أو حالٍ ثبتَ للمجرورِ باللّامِ، ومعنى لامِ الاختصاصِ يُكسِبُ مدخولَها حالةً يخفَى سببُها الَّذي عُلِّقَ بمدخولِ اللّامِ، كقولِكَ لمَن يستوقفُكَ: ما لَكَ؟ فتكونُ الجملةُ الَّتي بعدَ اسمِ الاستفهامِ وخبرِهِ جملةً فعليَّةً[4].

بلاغةُ صيغةِ المضارعِ في ﴿أَدۡعُوكُمۡ﴾:

الدّاعيةُ إلى اللهِ يدعو إليهِ باستمرارٍ

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ ﴿أَدۡعُوكُمۡ﴾ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿مَالِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ مؤمنَ آلِ فرعونَ يدعو قومَهُ إلى النَّجاةِ باستمرارٍ وتجدُّدٍ، وهذا هو شأنُ الدّاعيةِ إلى الحقِّ، لا يَفْتُرُ عن دعوةِ النّاسِ إلى ما فيهِ فوزُهم وفلاحُهم.

وفي هذا أيضًا إشارة إلى تعليمِ الدُّعاة الصَّبرَ على المدعوّين وتحمُّلِ أذاهم.

سرُّ التَّعبيرِ بالدَّعوةِ في قوله: ﴿أَدۡعُوكُمۡ﴾:

آثر القرآن الكريم التَّعبيرَ بلفظ الدَّعوة في قوله: ﴿أَدۡعُوكُمۡ﴾؛

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 66، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 152.
(2) محمد أبو موسى، آل حم غافر فصلت دراسة في أسرار البيان، ص: 158.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 277.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 152.

لأنَّه يحمل دلالات إيمانيَّة، بخلاف لفظ النِّداء مثلًا، فلا يؤدّي هذه المعاني، وأيضًا لأنَّ لفظ الدُّعاء يحمل معنى التَّضرُّع والحرص على نجاتهم ممّا هم فيه من الكفر والشِّرك.

نكتةُ تعديةِ فعلِ الدُّعاءِ بـ ﴿إِلَىٰ﴾ دون اللام:

غايةُ الدّاعي إلى الحقِّ النَّجاةُ

فعلُ الدَّعوةِ إذا رُبِطَ بمتعلِّقٍ غيرِ مفعولِهِ؛ يتعدَّى تارةً باللّام، وهو الأكثرُ في الكلام، ويتعدَّى أخرى بحرفِ (إلى)، وهو الأكثرُ في القرآنِ؛ لِما فيهِ مِنَ الاعتباراتِ، ومِن ذلكَ أنَّهُ إذا كانَ المتعلَّقُ مِنَ المحسوساتِ؛ يتعدَّى بـ (إلى)، كما في قولِهِ هنا: ﴿أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ﴾؛ فإنَّ النَّجاةَ هي نجاةٌ مِنَ النّارِ، فهي نجاةٌ مِن أمرٍ محسوسٍ، وحرفُ ﴿إِلَىٰ﴾ دالٌّ على الانتهاءِ؛ لأنَّ الَّذي يدعو أحدًا إلى شيءٍ إنَّما يدعوهُ إلى أن ينتهيَ إليهِ[1]، وفي ذلكَ ترغيبٌ في اتِّباعِ دعوةِ الحقِّ الَّتي مآلُها الفوزُ والنَّجاةُ.

دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلنَّجَوٰةِ﴾:

النَّجاةُ مِنَ النّارِ رغبةُ الداعي إلى الحقِّ

جاء لفظ ﴿ٱلنَّجَوٰةِ﴾ معرَّفًا بـ (أل) في قولِهِ تعالى: ﴿أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ المرادَ بها نجاةٌ معهودةٌ، وهي النَّجاةُ مِنَ النّارِ، بخلاف التَّنكير فقد يحمل معنى النَّجاة في الدُّنيا أو عموم النَّجاة، وهذا على خلاف مقصود مؤمن آل فرعون؛ لأنَّه يدعوهم إلى الأخذ بأسباب النَّجاة في الآخرة.

بلاغةُ المجازِ في التَّعبيرِ بـ ﴿ٱلنَّجَوٰةِ﴾:

الإيمانُ سببُ الخلاصِ مِنَ العذابِ

في قولِهِ تعالى: ﴿أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ﴾ مجازٌ مرسَلٌ بذكرِ المسبَّبِ وإرادةِ السَّببِ؛ إذ المعنى: أدعوكُم إلى الإيمانِ باللهِ الَّذي هو سببُ النَّجاةِ مِنَ النّارِ، والغرضُ مِن ذلكَ الاختصارُ[2]، وتأكيدُ إفضاءِ الإيمانِ إلى الخلاصِ مِن عذابِ النّارِ، فذُكِرَ المسبَّبُ دونَ السَّببِ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 153.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 561، وأطفيش، تفسير أطفيش: 9/ 248.

سرُّ العدولِ عن (الجنَّةِ) إلى ﴿ٱلنَّجَوٰةِ﴾:

النَّجاةُ مِنَ النّارِ هي الفوزُ العظيمُ

كانَ الظّاهرُ أن يقولَ: (أدعوكُم إلى الجنَّةِ، وتدعونَني إلى النّارِ)؛ لتتمَّ المقابلةُ، وليكونَ أقربَ إلى قولِهِ قبلَهُ: ﴿يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ ۝٤٠﴾ [غافر: 40]، وإنَّما عدلَ إلى قولِهِ: ﴿أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾؛ للتَّهويلِ مِن أمرِ النّارِ الَّتي يدعونَهُ إليها، وأنَّ النَّجاةَ منها هي الفوزُ العظيمُ، وكلُّ مَن نجا مِنَ النّارِ، وزُحزِحَ عنها، فهو في الجنَّةِ بوعدِ اللّهِ[1]، وفي التَّعبيرِ بلفظِ النَّجاةِ إشارةٌ إلى أنَّ قومَه في موضعِ الهلاكِ؛ لأنَّ أصلَ لفظِ النَّجاةِ يُستعملُ عند إحداقِ الغرقِ؛ إذ يُطلقُ على المكانِ العالي الذي يُلجأُ إليه عند شدَّةِ السّيولِ.

دلالةُ الواوِ في ﴿وَتَدۡعُونَنِيٓ﴾:

الدَّعوةُ إلى الهلاكِ ليسَتْ مِن شأنِ العقلاءِ

الواوُ في قولِه: ﴿وَتَدۡعُونَنِيٓ﴾ تحتملُ عدَّةَ معانٍ، فيُحتملُ أن تكونَ حاليَّةً، وجملةُ: ﴿وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ في موضعِ الحالِ بتقديرِ مبتدأٍ، أي: وأنتم تدعونَني إلى النّارِ[2]، أي: ما لي أدعوكُم إلى النَّجاةِ حالَ دعائِكم إيّايَ إلى النّارِ؟ ويحتملُ أن تكونَ الواوُ استئنافيَّةً، والجملةُ مستأنفةٌ، أخبرَ عنهُم بذلكَ بعدَ استفهامِهِ عن دعاءِ نفسِهِ[3]، ويحتملُ أن تكونَ الواوُ عاطفةً، والجملةُ معطوفةٌ على ﴿أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ﴾[4]، وأيًّا ما كانَ؛ فدعاؤُهم إيّاهُ إلى النّارِ هو محلُّ التَّعجُّبِ والإنكارِ؛ إذ لا ينبغي أن يكونَ.

بلاغةُ صيغةِ المضارعِ في ﴿وَتَدۡعُونَنِيٓ﴾:

دلَّ التَّعبيرُ بصيغةِ المضارعِ (تدعونني) في قولِه: ﴿وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ على استمرارِ دعوتِهم إلى النّارِ وتجدُّدِها، وفي ذلكَ مزيدُ تقبيحٍ وإنكارٍ؛ إذ الإصرارُ على الباطلِ قبيحٌ.

(1) أبو موسى، آل حم غافر فصلت دراسة في أسرار البيان، ض: 158.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 152.
(3) السمين، الدر المصون: 9/ 484.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 492.

سرُّ التَّعبير بالجملة الفعليَّة ﴿وَتَدۡعُونَنِيٓ﴾:

آثرَ القرآن الكريم التَّعبيرَ بالجملةِ الفعليَّةِ ﴿وَتَدۡعُونَنِيٓ﴾ دون الاسميَّة؛ لأنَّ الفعليَّة لا تقتضي توكيدًا وثبوتًا، كما في الاسميَّة، ولأنَّها مناسبة للسّياق، فدعوتُهم باطلةٌ لا ثبوتَ لها حتّى تُؤكَّدَ[1].

نكتةُ تعديةِ ﴿وَتَدۡعُونَنِيٓ﴾ بـ ﴿إِلَى﴾ دون اللّام:

عُدّيَ فعلُ الدَّعوةِ في قولِهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ بـ﴿إِلَى﴾ الدّالَّةِ على الانتهاءِ؛ لزيادةِ التَّوبيخِ والتَّعجُّبِ، ببيانِ أنَّ منتهَى دعوةِ الكافرينَ هي النّارُ، وهم معَ ذلكَ مُصِرّونَ عليها.

مآلُ دعوةِ الباطلِ هو النّارُ

دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلنَّارِ﴾ دون التَّنكير:

التَّعريف في لفظ ﴿ٱلنَّارِ﴾ في قولِه: ﴿وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ للعهدِ، فالمرادُ بها نارٌ معيَّنةٌ معروفة، وهي نارُ الآخرةِ، بخلاف التَّنكير فإنَّه يدلُّ على العموم، وهذا يشمل نار الدُّنيا ونار الآخرة، والمراد هنا الحديث عن نار الآخرة دون نار الدُّنيا.

نارُ الآخرةِ مآلُ دعوةِ الباطلِ

بلاغةُ المجازِ في ﴿ٱلنَّارِ﴾:

في قولِهِ جلَّ من قائلٍ: ﴿وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ مجازٌ مرسَلٌ بإطلاقِ المسبَّبِ وإرادةِ السَّببِ، والمعنى: وتدعونني إلى أسباب النّار، أو: وتدعونَني إلى عملِ أهلِ النّارِ[2]، وهو الكفرُ والشِّركُ باللهِ تعالى[3].

الكفرُ هو طريقُ قومِ مؤمنِ آلِ فرعونَ

نكتةُ فصلِ قولِهِ: ﴿تَدۡعُونَنِي﴾:

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ﴾ عن قولِهِ: ﴿وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾؛ لأنَّهُ بدلٌ منهُ، أو عطفُ بيانٍ لهُ؛ بناءً على أنَّ عطفَ البيانِ يَجري في الجملِ كالمفرداتِ[4]، وذلكَ لأنَّ الدَّعوةَ إلى النّارِ أمرٌ

الكفرُ مُفْضٍ إلى النّارِ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 260.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 390.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 561، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 519.
(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 58، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 277، والخفاجي، عناية القاضي: 7/ 372.

مُجمَلٌ مُستغرَبٌ، فبيَّنَهُ ببيانِ أنَّهم يدعونَهُ إلى التَّلبُّسِ بالأسبابِ الموجبةِ عذابَ النّارِ[1]، فيكونُ الفصلُ لكمالِ الاتِّصالِ، وفي هذا الإجمالِ ثمَّ البيانِ تأكيدٌ للمعنى، وتقريرٌ لهُ في النَّفسِ بعدَ التَّشويقِ لهُ، وبناءٌ للمعاني بعضِها على بعضٍ، فيزدادُ الارتباطُ والتَّلاحمُ[2].

ويحتملُ أن تكونَ جملةُ: ﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ﴾ جملةً مستأنفةً مفسِّرةً جملةَ: ﴿وَتَدْعُونَنِنِ إِلَى ٱلنَّارِ﴾[3]، فيكونَ الفصلُ لشِبْهِ كمالِ الاتِّصالِ.

نكتةُ إعادةِ فعلِ ﴿تَدْعُونَنِي﴾:

ورد النَّظم القرآنيُّ في قوله: ﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ﴾ بإعادةِ فعلِ الدَّعوةِ، ولم يقل: (لأكفرَ باللهِ)؛ لِما في إعادةِ الفعلِ من زيادةِ التَّسجيلِ عليهم بأنَّهم يدعونَ إلى ما لا خيرَ فيهِ، بل عاقبتُهُ الهلاكُ والخُسْرانُ.

عاقبةُ دعوةِ الكافرينَ الخُسرانُ

ولبيانِ الفرقِ بين الدَّعوتين - وإن كان بينهما تلازم - فالأولى دعوة إلى النّار، وأسباب ذلك كثيرة، أمّا هنا؛ فالكلام مقصور على دعوتهم له؛ ليكفر باللّه تعالى، وهذا أمرٌ يوجب الهلاك والعقاب بمفرده؛ لذلك أعاد فعل ﴿تَدْعُونَنِي﴾؛ ليفرِّق بين الدَّعوتين، وليسجِّل عليهم مزيدًا من التَّوبيخ والتَّبكيت.

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿تَدْعُونَنِي﴾:

جيءَ بصيغةِ المضارعِ في قولِهِ ﷻ: ﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ﴾؛ للدَّلالةِ على استمرارِ دعوتِهم إلى الكفرِ والشِّركِ وتجدُّدِها، وفي ذلكَ مزيدُ تقبيحٍ لشأنِهم؛ إذ يُصِرّونَ على الدَّعوةِ إلى الباطلِ.

استمرارُ دعوتهم إلى الكفرِ والشِّركِ وتجدُّدها كلَّما حانت لهم الفرصة

وفيه تعليمٌ للدُّعاة بأن يأخذوا حِذرهم من أهل الباطل في تجديد دعوتهم للنّاس حتى يوقعوهم في ضلالهم، ويوهموهم أنَّهم على صواب.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 153.
(2) أبو موسى، آل حم غافر فصلت، ص: 159.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 342.

نكتةُ تعديةِ ﴿تَدْعُونَنِي﴾ باللّامِ:

الكفرُ غايةُ دعوةِ الكافرينَ

فعلُ الدَّعوةِ إذا رُبِطَ بمتعلِّقٍ غيرِ مفعولِهِ يتعدَّى تارةً باللّام، وهو الأكثرُ في الكلام، ويتعدَّى أخرى بحرفِ (إلى)، وهو الأكثرُ في القرآنِ، وقد عُدّيَ باللّامِ في قولِهِ تعالى هنا: ﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ﴾؛ لأنَّ المتعلَّقَ مِنَ المعنويّاتِ[1]، وهو غايةُ دعوةِ قومِ مؤمنِ آلِ فرعونَ، أي: تدعونَني لأجلِ أن أكفرَ باللهِ[2]، وما أقبحَ الدَّعوةَ الَّتي تقودُ إلى الكفرِ!

وفي تعدية الفعل باللام كذلك بيانٌ أنَّ دعوتَهم لمؤمن آل فرعون إلى الكفر هي غرضُهم الأساس، فكأنَّه لا غرض أمامهم إلّا كفرُه.

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿لِأَكْفُرَ﴾:

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ في قولِهِ تعالى: ﴿لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ﴾؛ لأنَّ كفرَ المدعوِّ هو غايةُ دعوةِ قومِ مؤمنِ آلِ فرعونَ، وهو أمرٌ مستقبلٌ، يرجونَ حصولَهُ، ويحرصونَ عليهِ.

نكتةُ التَّعبيرِ بالكفرِ:

الأكثرونَ مِن قومِ فرعونَ ينكرونَ وجودَ اللهِ

آثر النَّظم القرآنيُّ التَّعبيرَ بالكفر في قولِهِ تعالى: ﴿لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ﴾؛ لأنَّه يُطلق على معانٍ متعدِّدة، منها: إنكار الألوهيَّة، وعدم الإيمان بالرُّسل، ونحو ذلك، ومن معانيه الجحود، وهو المراد هنا؛ إذ جحدوا الباري ﷻ، فالتَّعبير بالكفر أنسب للسّياق؛ لأنَّ الأكثرينَ مِن قومِ فرعونَ كانوا ينكرونَ وجودَ اللهِ ﷻ[3].

دلالةُ الباءِ في ﴿بِٱللَّهِ﴾:

الباءُ في قولِهِ تعالى: ﴿لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ﴾ للإلصاقِ، فتفيدُ أنَّ غايتَهم جعلُ الكفرِ متعلِّقًا باللهِ تعالى الَّذي لا ينبغي أنْ يُكفرَ بهِ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 153.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 76، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 68.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 519.

نكتةُ التَّعبيرِ باسم الجلالةِ:

الكفرُ بالعظيمِ عظيمٌ

عُبِّرَ باسم الجلالةِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ﴾؛ لزيادةِ تقبيحِ دعوةِ القومِ؛ لأنَّها دعوةٌ إلى الكفرِ بالعظيمِ الَّذي لهُ القهرُ والعزُّ، والعظمةُ والكِبْرياءُ[1]، والمعنى: تدعونَني لأكفرَ باللهِ خالقِ كلِّ شيءٍ، وأنا وأنتم مِن مخلوقاتِهِ الَّتي يهيمنُ عليها، ولهُ على عبادِهِ حقُّ الإيمانِ والتَّوحيدِ[2]، ولأنَّ التَّعبير باسم الألوهيَّة (الله) يجمع كلَّ صفات الجلال والجمال والكمال.

دلالةُ عطفِ الشِّركِ على الكفرِ:

كفرُ قومِ فرعون متعدِّد الصّور والأنواع

عُطِفَ الشِّركُ على الكفرِ في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ﴾؛ لأنَّ قومَ فرعون تعدَّدت صور كفرِهم؛ فالأكثرون مِنهم كانوا ينكرونَ وجودَ اللهِ، ومنهُم مَن كانَ يُقِرُّ بوجودِ اللهِ، إلّا أنَّهُ كانَ يُثبتُ عبادةَ الأصنامِ[3]، ومِنهم مَن كان يعبد فرعون، ويرون فيه أنَّه الحكيم الملهم؛ لذلك ذكرَ مؤمنُ آلِ فرعونَ الكفر والشِّرك معًا تمهيدًا لإبطالِ الدَّعوةِ إليهما.

بلاغةُ صيغةِ المضارعِ في ﴿وَأُشۡرِكَ﴾:

حـرصُ قـومِـهِ عـلى وقـوعـه في الشِّرك في الحال والاستقبال

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَأُشۡرِكَ بِهِۦ﴾؛ لأنَّ شِرْكَ مؤمنِ آلِ فرعونَ أمرٌ يرجو قومُ فرعونَ حصولَهُ في المستقبلِ؛ إذ هو غايةُ دعوتِهم الَّتي يستمرّونَ عليها، ويُجدِّدونَها.

معنى الباءِ في ﴿بِهِۦ﴾:

الباءُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَأُشۡرِكَ بِهِۦ﴾ للإلصاقِ، فتفيدُ أنَّ غايةَ قومِ فرعونَ جعلُ الشِّركِ متعلِّقًا باللهِ تعالى الَّذي لا شريكَ لهُ.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 76.
(2) حبنكة، معارج التفكر ودقائق التدبر: 12/ 380.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 51 9.

دلالةُ تقديم الجارِّ والمجرور ﴿بِهِۦ﴾ على المفعول:

الإشـراكُ باللهِ مـحـلُّ إنـكـارٍ وتعجُّبٍ

قُدِّمَ الجار والمجرور ﴿بِهِۦ﴾ على المفعولِ بهِ ﴿مَا﴾ في قولِهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ﴾؛ للعنايةِ بالمقدَّمِ؛ إذ محلُّ الإنكارِ والتَّعجُّبِ الإشراكُ بهِ تعالى، ولأنَّ في الموصولِ وصلتِهِ نوعَ طولٍ، فربَّما يُخِلُّ تقديمُهُ بتجاوبِ أطرافِ النَّظمِ.

دلالةُ ﴿مَا﴾:

لا ينبغي أنْ يُشرَكَ باللهِ شيءٌ

﴿مَا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ﴾ اسم موصول، وأوثِر التَّعبير بها؛ لأنَّها تفيد العمومَ، وهذا يعني أنَّ كلَّ ما يُشرَكُ باللهِ تعالى محلُّ إنكارٍ وتعجُّبٍ، وفي التَّعبيرِ بها أيضًا تحقيرٌ وتهاونٌ بما يشركونَهُ باللهِ الواحدِ القهّارِ[1].

معنى اللّامِ في ﴿لِى﴾:

لا يملكُ مؤمنُ آلِ فرعونَ علمًا بما يُشرَكُ باللهِ

اللّامُ في قولِهِ تعالى: ﴿لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ﴾ للاختصاص، فتفيدُ انتفاءَ علمِ مؤمنِ آلِ فرعونَ بما يُشرَكُ باللهِ تعالى، أي: ليس لي علم بشركته مع الله في المعبوديَّة، والمراد نفي المعلوم رأسًا، وهو المعبود فضلًا عن عبادته[2].

معنى الباءِ في ﴿بِهِۦ﴾:

الباءُ في قولِهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ﴾ للإلصاقِ، فتفيدُ في هذا السّياقِ انتفاءَ تعلُّقِ العلمِ بما يُشرَكُ باللهِ تعالى.

دلالة تقديم الجار والمجرور ﴿لِى بِهِۦ﴾:

قُدِّمَ ﴿لِى بِهِۦ﴾ على ﴿عِلْمٌ﴾ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ﴾؛ للعنايةِ بالمقدَّمِ، وهو نفي تعلُّقِ علمِ مؤمنِ آلِ فرعونَ بما يُشرَكُ باللهِ تعالى، والتَّشويقِ للمُؤخَّرِ.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 76.

(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 25/ 208.

سرُّ التَّعبير بنفي العلم دون غيره:

الإيمانُ بالله راسخ في قلوب المؤمنين

جاء التَّعبيرُ القرآنيُّ بنفي العلم في قوله تعالى: ﴿مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ﴾ في نفي قضيَّة الإشراك بالله دون غيره؛ للإشعار بأنَّ الألوهيَّة لا بدَّ لها من برهان، واعتقادها لا يصحُّ إلّا عن إيقان، فإنَّها من المطالب الَّتي يُشترَط فيها اليقين، ولا يُكتفى فيها بالتَّقليد، ولمّا كان العلم صفة توجب تمييزًا لا يحتمل النَّقيض، فما لا علم له من المطالب اليقينيَّة غير ثابت؛ لذلك كان التَّعبير بنفي العلم دون نفي البطلان مع أنَّه المقصود ليعامل معاملة المنصف[1].

نكتةُ تنكيرِ ﴿عِلْمٌ﴾:

لا دليلَ مطلقًا على الإشراكِ باللهِ تعالى

تنكيرُ ﴿عِلْمٌ﴾ في قولِهِ عزَّ من قائلٍ: ﴿لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ﴾ للعموم؛ لأنَّهُ نكرةٌ في سياقِ النَّفي، فيفيدُ انتفاءَ كلِّ أنواعِ العلم بما يُشرَكُ باللهِ تعالى[2]، سواء كان ذلك العلم ظاهرًا أم باطنًا، نظريًّا أم عمليًّا، وفي ذلكَ ملاءمةٌ لمقامِ التَّعجُّبِ والتَّوبيخِ؛ إذ لا يدلُّ على هذا الإشراكِ دليلٌ ولا شُبْهةُ دليلٍ.

بلاغةُ الكنايةِ في ﴿لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ﴾:

ليس للمشركين أيُّ دليل على إشراكهم

في قولِهِ تعالى: ﴿لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ﴾ كنايةٌ لطيفةٌ، وذلكَ أنَّ المرادَ بنفي العلمِ نفيُ وجودِ المعلوم، كأنَّهُ قالَ: وأشركَ بهِ ما ليسَ بإلهٍ، وما ليسَ بإلهٍ كيفَ يُعقَلُ جعْلُهُ شريكًا للإلهِ؟[3] فهو من بابِ نفي الشَّيءِ بنفي لازمِهِ على سبيلِ الكنايةِ[4] الَّتي هي أبلغُ مِنَ التَّصريحِ.

بلاغةُ عطفِ ﴿وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ﴾:

بيانُ المعبودِ بالحقِّ بعدَ إبطالِ عبادةِ غيرِهِ

قولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ﴾ معطوفٌ على قولِهِ: ﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ﴾، ونكتةُ العطفِ: أنَّهُ لمّا بيَّنَ أنَّهم دعَوهُ إلى

(1) القونوي، حاشية القونوي على البيضاوي: 17/ 68.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 76.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 169.
(4) الطيبي، فتوح الغيب: 13/ 517، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 153.

ما هو عدمٌ فضلًا عن أن يكونَ لهُ نفعٌ أو ضَرٌّ؛ بيَّنَ لهُم أنَّهُ دعاهُم إلى ما لهُ الكمالُ كلُّهُ، ولا نفعَ ولا ضُرَّ إلّا بيدِهِ[1]، وفيهِ أيضًا بيانٌ لمُجمَلِ جملةِ: ﴿أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ﴾[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّةِ:

عُبِّرَ بالجملةِ الاسميَّةِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ﴾؛ لأنَّها تدلُّ على الثُّبوتِ والدَّوامِ، فتفيدُ التَّنبيهَ على ثبوتِ الدَّعوةِ وقوَّتِها[3].

نكتةُ تقديمِ المسندِ إليهِ على المسندِ:

قُدِّمَ المسندُ إليهِ (أنا) على المسندِ الفعليِّ ﴿أَدْعُوكُمْ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ﴾؛ لإفادةِ تقوّي الحكم[4] بإسنادِ الدَّعوةِ إلى مؤمنِ آلِ فرعونَ مرَّتينَ: الأولى بإسنادِ ﴿أَدْعُوكُمْ﴾ إلى (أنا)، والثّانيةُ باشتمالِ ﴿أَدْعُوكُمْ﴾ على ضميرِ الفاعلِ الرّاجعِ إلى المبتدأ، كأنَّهُ قد قيلَ: وأنا أدعوكُم، وأنا أدعوكُم.

مؤمنُ آلِ فرعونَ داعيةٌ إلى الحقِّ يقينًا

بلاغةُ صيغةِ المضارعِ في ﴿أَدْعُوكُمْ﴾:

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ في قولِهِ تعالى: ﴿أَدْعُوكُمْ﴾؛ للدَّلالةِ على استمرارِ دعوةِ مؤمنِ آلِ فرعونَ إلى اللّهِ تعالى وتَجدُّدِها، وهكذا شأنُ الدّاعيةِ الصّادقِ، فهو يدعو إلى الحقِّ دونَ كَلَلٍ ولا مَلَلٍ؛ لأنَّ النَّفسَ تحتاجُ إلى مَن يوقظها من الغفلة، ويبعدها عن الضَّلال، كما كان الأنبياء يفعلون مع أقوامهم.

الدّاعيةُ إلى الحقِّ يدعو باستمرارٍ دون كلل أو ملل

دلالةُ تعديةِ فعلِ الدَّعوةِ بحرفِ ﴿إِلَى﴾:

فعلُ الدَّعوةِ يُعدَّى بحرفِ ﴿إِلَى﴾ الدّالَّةِ على انتهاءِ الغايةِ، إذا كانَ المتعلَّقُ مِنَ المحسوساتِ، وقد عُدِّيَ بها في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَنَا۠

الدُّعاء إلى الله دعاء إلى توحيده

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 77.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 153.
(3) السمين، الدر المصون: 9/ 484، والبقاعي، نظم الدرر: 17/ 77.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 153.

أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ﴾؛ لأنَّ الدُّعاءَ إلى اللهِ دعاءٌ إلى توحيدِهِ بالرُّبوبيَّةِ، فشُبِّهَ بشيءٍ محسوسٍ تشبيهَ المعقولِ بالمحسوسِ، وشُبِّهَ اعتقادُهُ صحَّتَهُ بالوصولِ إلى الشَّيءِ الَّذي يُسعَى إليهِ، وشُبِّهَتِ الدَّعوةُ إليهِ بالدَّلالةِ على الشَّيءِ المرغوبِ في الوصولِ إليهِ، فكانَت في حرفِ ﴿إِلَى﴾ استعارةٌ مكنيَّةٌ وتخييليَّةٌ وتبعيَّةٌ[1].

نكتةُ العدولِ عن اسم الجلالةِ إلى ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ﴾:

العزيزُ الغفّارُ هو المستحِقُّ للإفرادِ بالألوهيَّةِ

عُدِلَ عن اسم الجلالةِ (اللهِ) إلى صفتَيِ ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ﴾؛ لإدماجِ الاستدلالِ على استحقاقِهِ تعالى الإفرادَ بالإلهيَّةِ والعبادةِ؛ لأنَّهُ العزيزُ الَّذي لا تناله النّاس، بخلافِ أصنامِهم؛ فإنَّها ذليلةٌ، توضَعُ على الأرضِ، وتُلوِّثُها الطُّيورُ بذَرْقِها، ولإدماجِ ترغيبِهم في الإقلاعِ عن الشِّركِ؛ ببيانِ أنَّ المتفرِّدَ بالإلهيَّةِ يغفرُ لهُم ما سلفَ مِن شركِهم بهِ، حتَّى لا ييأسوا مِن عفوِهِ[2].

بلاغةُ التَّعبيرِ بـ ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ﴾ دونَ غيرِهما:

العزيزُ والغفّارُ يدلّانِ على صفاتِ الألوهيَّةِ

عُبِّرَ بـ ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ﴾ دونَ غيرِهما في قولِهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ﴾[3]؛ لدلالةِ هاتينِ الصِّفتينِ على استجماعِهِ تعالى صفاتِ الألوهيَّةِ، مِن كمالِ القدرةِ والغلَبةِ، والعلمِ، والإرادةِ، والتَّمكُّنِ مِنَ المجازاةِ، والقدرةِ على التَّعذيبِ والغفرانِ، ولِما فيهما مِنَ الدَّلالةِ على الخوفِ والرَّجاءِ المناسبِ لحالِهِ وحالِهم[4].

بلاغةُ التَّعبيرِ بصيَغِ المبالغةِ في ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ﴾:

اللهُ تعالى بالغُ العزَّةِ واسعُ المغفرةِ

عُبِّرَ بصيغتَيِ (فعيلٍ) و(فعّالٍ) الدّالَّتينِ على المبالغةِ في قولِهِ تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ﴾؛ لمناسبتِهما لمقامِ ترهيبِ المشركينَ المصرّينَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 153.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 154.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 324.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 519، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 324.

على شركِهم وعنادِهم، وترغيبِهم بالإيمانِ والإنابةِ إلى اللهِ، والمعنى: وأنا أدعوكُم إلى البالغِ العزَّةِ الَّذي يغلبُ كلَّ شيءٍ، ولا يغلبُهُ شيءٌ، الَّذي يتكرَّرُ لهُ دائمًا مَحْوُ الذُّنوبِ عينًا وأثرًا، ولا يقدرُ على ذلكَ غيرُ مَن هو متَّصفٌ بالعزَّةِ[1].

بلاغةُ المقابلةِ بين الدَّعوتين:

لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون

في قولِهِ تعالى: ﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ﴾ مقابلةٌ لطيفةٌ بينَ ما يدعونَهُ إليهِ ممّا لا علمَ لهُ بهِ، وبينَ ما يدعوهُم هو إليهِ، وهو العزيزُ الغفّارُ، وهذهِ المقابلةُ تفتحُ البابَ لمعنى قولِهِ: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾[2].

نكتةُ مخالفةِ الظّاهرِ في ترتيبِ الجملِ:

الإنكارُ على المشركينَ محطُّ الاهتمامِ

مقتضَى التَّرتيبِ أن يكونَ قولُهُ: ﴿وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ﴾ قبلَ قولِهِ: ﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ﴾؛ ليكونَ الكلامُ مناسبًا لما قبله على طريقةِ اللَّفِّ والنَّشرِ المرتَّبِ، لكن عُدِلَ إلى ما جاءَ عليهِ الكلامُ؛ ليُشارَ إشارةً واضحةً إلى شدَّةِ عنايةِ هذا الرَّجلِ الصّادقِ بما آلَ إليهِ حالُ نُصْحِهِ لقومِهِ، وأنَّ خطابَهُ لم ينفعْ بشيءٍ، ولم يتركوهُ، وإنَّما دعَوْهُ إلى ما هم عليهِ، وأنَّ ردَّهُ هنا موجَّهٌ أكثرُهُ إلى دعوتِهم لهُ للكفرِ والإشراكِ[3].

بلاغةُ الاحتباكِ في الآيةِ:

براعةُ الإيجازِ بالحذفِ

في قولِهِ تعالى: ﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ﴾ فنٌّ من فنونِ الإيجازِ بالحذفِ، وهو فنُّ الاحتباكِ، وذلكَ أنَّ قولَهُ: ﴿مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ﴾ يدلُّ على أنَّهُ ليسَ لهُ عزَّةٌ ولا مغفرةٌ؛ لأنَّ ما لم يكن به علمٌ؛ لم يكن له عزَّةٌ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 77، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 68.
(2) أبو موسى، آل حم غافر فصلت، ص: 161.
(3) أبو موسى، آل حم غافر فصلت، ص: 159.

ولا مغفرة، وقولُهُ: ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ﴾ يدلُّ على أنَّهُ لا يجهلُ أحدٌ ما عليهِ اللّٰهُ مِن صفاتِ الكمالِ، فالآيةُ مِنَ الاحتباكِ، ذُكِرَ أوَّلًا عدمُ العلمِ؛ دليلًا على العلمِ ثانيًا، وذُكِرَ ثانيًا العزَّةُ والمغفرةُ؛ دليلًا على حذفِهما أوَّلًا[1].

نكتةُ فصلِ ﴿لَا جَرَمَ﴾:

حِرصُ مؤمنِ آلِ فرعونَ على نجاةِ قومِهِ

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ﴾ الآية... عمّا قبلَهُ؛ لأنَّهُ بيانٌ لقولِهِ: ﴿تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ﴾ الآية... الَّذي هو بيانٌ لِما قبلَهُ أيضًا، فيُلحَظُ أنَّ البيانَ الأوَّلَ صارَ مجمَلًا بالنِّسبةِ للبيانِ الثّاني، وبهذا ترى المعانيَ يتواردُ بعضُها في إثرِ بعضٍ لزيادةِ الإيضاحِ، فيأتي المبهَمُ ثمَّ الواضحُ ثمَّ الأوضحُ، وكلُّ هذا لمزيدِ العنايةِ بالمعنى، ومزيدِ حرصِ الرَّجلِ الصّادقِ على نجاةِ قومِهِ مِن هلاكٍ لا يطيقُ أن يراهم يسقطونَ فيهِ[2].

ويحتمل أن يكونَ قولُهُ: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ﴾ الآية... في موقعِ التَّعليلِ لجملتَي: ﴿مَالِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾؛ لأنَّهُ إذا تحقَّقَ أنَّه لا دعوةَ للأصنامِ في الدُّنيا بدليلِ المشاهدةِ، ولا في الآخرةِ بدلالةِ الفحوَى؛ فقد تحقَّقَ أنَّها لا تُنجي أتباعَها في الدُّنيا، ولا يفيدُهم دعاؤُها ولا نداؤُها، وتحقَّقَ أنَّ المرجوَّ للإنعامِ في الدُّنيا والآخرةِ هو الرَّبُّ الَّذي يدعوهُم المؤمنُ إليهِ[3].

بلاغةُ التَّعبيرِ بـ﴿لَا جَرَمَ﴾:

بـطـلانُ دعـوةِ المشركينَ متيقَّنٌ

﴿لَا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ﴾ ردٌّ لِما دعاهُ إليهِ قومُهُ، و﴿جَرَمَ﴾ بمعنى (حقَّ)، و(أنَّ) - معَ ما في

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 77.
(2) محمد أبو موسى، آل حم غافر فصلت، ص: 159.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 154.

حيِّزها - فاعلُهُ، أي: حقَّ، ووجبَ بطلانُ دعوتِهِ، أو بمعنى (كسبَ)، أي: كسبَ ذلكَ الدُّعاءُ إليهِ بطلانَ دعوتِهِ، على معنى أنَّهُ ما حصلَ مِن ذلكَ إلّا ظهورُ بطلانِ دعوتِهِ، ويجوزُ أن يقالَ: إنَّ ﴿لَا جَرَمَ﴾ مثلُ (لا بدَّ)، مِنَ الجَرْمِ، وهو القطعُ[1]، وأيًّا ما كانَ؛ ففي الكلامِ تأكيدٌ لبطلانِ دعوتِهم.

بلاغةُ التَّوكيدِ في الجملة:

لا شكَّ في بطلانِ دعوةِ المشركينَ

أُكِّدَ قولُهُ تعالى: ﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ﴾ بـ (أنَّ) واسميَّةِ الجملةِ؛ للتَّنبيهِ على أنَّ عدمَ وجودِ دعوةٍ لِما يدعونَهُ إليهِ أمرٌ ثابتٌ متيقَّنٌ، لا شكَّ فيهِ، وذلك لأنَّ الجملة الاسميَّة من خصائصها الدَّلالة على الثُّبوت.

سرُّ التَّعبيرِ بـ (ما) في قوله: ﴿أَنَّمَا﴾:

كـلُّ الأوثـانِ لا تقدر على شيء

آثرَ التَّعبيرُ بـ (ما) في قولِهِ تعالى: ﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ﴾ دون (الذي)؛ لأنَّها تفيد العموم، بخلاف (الذي)، وفي التَّعبيرِ بها تنبيهٌ على أنَّ بطلانَ الدَّعوةِ شاملٌ لكلِّ ما يدعونَهُ إليهِ مِنَ الأوثانِ والأندادِ، والمعنى: أنَّ الَّذي تدعونَني إليهِ - أي: إلى عبادتِهِ - ليسَ لهُ إجابة دعوة، أي: لا يستجيب لأحدٍ[2] مطلقًا.

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿تَدْعُونَنِيٓ﴾:

إصـرارُ قـومِ فـرعـونَ عـلى الـدُّعـاءِ إلى باطلِهم

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿تَدْعُونَنِيٓ﴾؛ للدَّلالةِ على إصرارِ قومِهِ على دعوتِهِ إلى باطلِهم؛ لأنَّ صيغةَ المضارعِ تفيدُ الاستمرارَ والتَّجدُّدَ.

وفي هذا لفتُ انتباهِ الدُّعاة إلى اللّه تعالى إلى الإصرار على بلاغ دعوتهم للمدعوّين مهما كانت الصِّعاب؛ لأنَّه إذا كان أهل الباطل يصرّون على دعوتهم، ويجدِّدونها؛ فأهل الحقِّ من باب أولى.

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 169، وابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 561.
(2) الوجيز، الواحدي، ص: 964.

سرُّ التَّعبير بـ (إلى) دون اللام:

آثر القرآنُ الكريم التَّعبير بـ (إلى) في قولِه: ﴿تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ دون اللام؛ لأنَّ (إلى) لانتهاءِ الغايةِ، وهذا يدلُّ على أنَّ غايةَ دعوةِ قومِ فرعونَ هي باطلُهم الَّذي يتمسَّكونَ بهِ.

وجهُ إفرادِ الضَّميرِ في ﴿إِلَيْهِ﴾:

رعايةُ لفظِ (ما) في عَوْدِ الضَّميرِ

المرادُ بـ (ما) في قولِه تعالى: ﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ﴾ الأصنامُ، وأُعيدَ الضَّميرُ إليها مفردًا في ﴿إِلَيْهِ﴾ و﴿لَهُۥ﴾؛ مراعاةً لإفرادِ لفظِ (ما)[1].

وفيه إشارةٌ إلى أنَّ الأصنامَ - مع اختلاف تنوُّعِها وصورها - عجْزُها عن إجابة الدَّعوة محلُّ اتِّفاق.

بلاغةُ أسلوب النَّفي في ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ﴾:

دعـوةُ أصنـامِ المشركينَ لا تنفعُ

النَّفيُ في قولِه تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ﴾ ليسَ على ظاهرِه؛ إذ الدَّعوةُ مشاهدةٌ، بل يحتملُ أن يكونَ المعنى: ليسَ لهُ استجابةُ دعوةٍ لَمن يدعوهُ أصلًا، أو ليسَ لهُ دعوةٌ مستجابةٌ، أي: لا يُدعَى دعاءً يستجيبُهُ لداعيه، فالكلامُ إمّا على حذفِ المضافِ، أو على حذفِ الموصوفِ[2]، فيكون مِن قبيل الإيجازِ بالحذفِ، ويجوز أن تكونَ استجابةُ الدَّعوة قد سُمّيَت بالدَّعوة إطلاقًا لاسمِ أحدِ المتضايفينِ على الآخرِ، وذلكَ مِن بابِ المشاكلةِ[3].

دلالةُ التَّعبير بـ (اللام) في ﴿لَهُۥ﴾:

لا يملكُ مدعوُّ الكفرةِ استجابةَ دعوتِهم

دلَّ التَّعبير بـ(اللّام) في ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ﴾ على انتفاءِ مِلْكِ مدعوِّ قومِ فرعونَ استجابةَ دعوتِهم[4]، ويكون المعنى أنَّ ما تدعونني إليه ليس له دعوة إلى نفسه قطُّ؛ لأنَّ من حقِّ المعبود بحقٍّ أن يدعو

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 154.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 325، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 155.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 520، والطيبي، فتوح الغيب: 13/ 519.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 155.

إلى طاعته، ثمَّ يدعو العباد إليها إظهارًا لدعوة ربِّهم، أمّا ما تدعون إليه، وإلى عبادته لا يدعو هو إلى ذلك، ولا يدَّعي الرُّبوبيَّة[1]، أو يكون المعنى: أنَّ الَّذي تدعونَني إلى عبادتِهِ ليسَ لهُ إجابة دعوة، أي: لا يستجيب لأحدٍ[2] مطلقًا.

غرضُ تقديم ﴿لَهُۥ﴾:

نـفـيُ استجابةِ الـدَّعـوةِ محطُّ الاهتمامِ

قُدِّمَ ﴿لَهُۥ﴾ على ﴿دَعۡوَةٞ﴾ في قولِ الباري ﷻ: ﴿لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ﴾؛ للعنايةِ بتعلُّقِ النَّفي بأوثانِ المشركينَ؛ تأكيدًا لانتفاء نفْعِهم ونفْعِ عبادتهم، وانتفاء قدرتهم على شيء، وفي هذا مزيد إنكار لاتِّخاذهم آلهةً تعبد من دون اللّه القادر على كلِّ شيءٍ سبحانه.

سرُّ التَّعبير بالدَّعوة دون الاستجابة:

جاء التَّعبيرُ القرآنيُّ بلفظ ﴿دَعۡوَةٞ﴾ في قوله: ﴿لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ بدلًا من الاستجابة؛ لأنَّ المعنى ليس له استجابة دعوة تنفع في الدُّنيا ولا في الآخرة؛ فسُمّيت الاستجابة باسم الدَّعوة من باب المشاكلة، كما في قولك: (كما تدين تدان)، أي: كما تجازي تُجازى[3]؛ لأنَّه قد ورد قبلها قوله: ﴿تَدۡعُونَنِيٓ﴾، فكان حسنًا أن تقابل، وتشاكل بما يقاربها من لفظها، وهو قوله: ﴿دَعۡوَةٞ﴾.

نكتةُ تنكيرِ ﴿دَعۡوَةٞ﴾:

لـيـسَ لـدعـوةِ الكافرينَ سبيلٌ إلى الاستجابةِ

تنكيرُ ﴿دَعۡوَةٞ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ﴾ للعمومِ؛ لأنَّها نكرةٌ في سياقِ النَّفي، وفي ذلكَ مبالغةٌ في بيانِ إفلاسِهم وضعفِ دعوتِهم؛ إذ ليسَ لها استجابةٌ بوجهٍ مِنَ الوجوهِ[4].

وفي التَّنكير أيضًا دلالةٌ على نفي الدَّعوة عن الأصنام مطلقًا؛

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 13/ 519.
(2) الوجيز، الواحدي، ص: 964.
(3) الطيبي، فتوح الغيب: 13/ 519.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 78.

فلا تملك الدَّعوة لنفسها، ولا الطَّلب من معبوديها، ولا إجابة ما يطلبونه منها.

دلالةُ التَّعبير بالظَّرفيَّة ﴿فِي﴾:

يدلُّ حرفُ الظَّرفيَّةِ في قولِه تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْآخِرَةِ﴾ على أنَّ الدُّنيا والآخرةَ ليستا ظرفًا لاستجابةِ الأوثانِ لدعوةِ الكافرينَ، فهي لا تنفعهم في الدُّنيا بشيء، ولا تدفع عنهم في الآخرة من عذاب اللّه شيئًا.

لا تُستجابُ دعوةُ الكافرينَ في الدّارين

دلالةُ تعريفي ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ و﴿ٱلْآخِرَةِ﴾:

التَّعريفُ في لفظي ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ و﴿ٱلْآخِرَةِ﴾ في قولِه: ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْآخِرَةِ﴾ للعهد؛ لأنَّهما معهودان للسّامع، فلا ينصرف ذهنه إلّا إليهما، والدُّنيا والآخرةُ في الأصلِ صفةٌ لمحذوفٍ، وهو الدّارُ، ثمَّ غلبتا، واستُغنيَ بهما عن الموصوفِ لشهرتهما.

غلبةُ الوصفينِ على الدّارين

نكتةُ تقديمِ ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ على ﴿ٱلْآخِرَةِ﴾:

قُدِّمَت ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ على ﴿ٱلْآخِرَةِ﴾ في قولِه جلَّ من قائلٍ: ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْآخِرَةِ﴾؛ رعايةً للتَّرتيبِ الزَّمنيِّ؛ إذ الدُّنيا قبلَ الآخرةِ، وللمسارعةِ إلى نفيِ الاستجابةِ في الدُّنيا الَّتي يعيشونَ فيها، وفي ذلكَ إقامةٌ للحجَّةِ عليهم، وبيانٌ لسَفَهِ رأيهم في عبادةِ ما لا يملكُ لهُم شيئًا في عاجلِهم وآجلِهم.

الأوثانُ لا تنفعُ في العاجلِ ولا في الآجلِ

دلالةُ (لا):

جيءَ بـ (لا) في قولِه تعالى: ﴿فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْآخِرَةِ﴾؛ لتوكيدِ النَّفيِ المستفادِ مِن ﴿لَيْسَ﴾، وفي هذا التَّوكيدِ ملاءمةٌ لمقامِ توبيخِ المشركينَ على دعوتِهم إلى ما لا يضرُّ، ولا ينفعُ.

بلاغةُ الطِّباقِ بينَ ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ و﴿ٱلْآخِرَةِ﴾:

خسارةُ عبّادِ الأصنامِ في الحالِ والمآلِ

في الجمعِ بينَ ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ و﴿ٱلْآخِرَةِ﴾ في قولِه تعالى: ﴿فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْآخِرَةِ﴾ محسِّنٌ معنويٌّ، وهو الطِّباقُ، وهو يرسمُ صورتينِ زمنيَّتينِ

متقابلتينِ، لا تُستجابُ فيهما دعوةُ مَن يدعو الأوثانَ: إحداهما في الدُّنيا، والأخرى في الآخرةِ.

بلاغةُ عطفِ ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾:

المصيرُ إلى اللهِ في الدُّنيا والآخرةِ

قولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ معطوفٌ على قولِهِ: ﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا﴾[1]، ونكتةُ العطفِ: أنَّهُ لمّا ذُكِرَ انتفاءُ دعوةِ ما عُبِدَ مِن دونِ اللهِ؛ ذُكِرَ أنَّ مَرَدَّ الجميعِ إلى جزاءِ اللهِ وحسابِهِ[2]، وهو أيضًا مِن عطفِ اللّازمِ على ملزومِهِ؛ لأنَّهُ إذا تبيَّنَ أنَّ ربَّ موسى عليه السلام المُسمَّى اللهَ هو الَّذي لهُ الدَّعوةُ؛ تبيَّنَ أنَّ المصيرَ إلى اللهِ في الدُّنيا بالالتجاءِ والاستنصارِ، وفي الآخرةِ بالحكمِ والجزاءِ[3].

سرُّ العطفِ بالواوِ دونَ الفاءِ:

العنايةُ بالتَّنصيصِ على كونِ الرُّجوعِ إلى اللهِ

قولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ معطوفٌ على قولِهِ: ﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ عطْفَ اللّازمِ على الملزومِ - كما تقدَّمَ - ولو عُطِفَ عليهِ بفاءِ التَّفريعِ؛ لصحَّ، ولكن عُدِلَ عن ذلكَ إلى العطفِ بالواوِ؛ اهتمامًا بشأنِ الجملةِ؛ لتكونَ مستقلَّةَ الدَّلالةِ بنفسِها، غيرَ باحثٍ سامعُها على ما ترتبطُ بهِ؛ لأنَّ الشَّيءَ المتفرِّعَ على شيءٍ يُعدُّ تابعًا لهُ[4].

نكتةُ توكيدِ ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾:

مَن كانَ إليهِ المَرَدُّ؛ فلا ينبغي أن يُعبدَ غيرُهُ

أُكِّدَ قولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ بـ (أنَّ) واسميَّةِ الجملةِ؛ لتأكيدِ الرُّجوعِ إلى اللهِ، وأنَّهُ أمرٌ كائنٌ - لا محالةَ[5] - وفي ذلكَ إيماءٌ إلى أنَّهُ لا ينبغي أن يُعبَدَ غيرُهُ ﷻ؛ لأنَّ المَرَدَّ إليهِ[6].

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 71.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 261.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 155.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 155.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 78.
(6) محمد أبو موسى، آل حم غافر فصلت، ص: 162.

وفيه تسليةٌ لأهل الحقِّ؛ لأنَّهم يجدون الجزاء عند العرض على اللّه تعالى، وتوبيخٌ وترهيبٌ لأهل الباطل ممّا ينتظرهم من العذاب.

سرُّ التَّعبير بالجمع ﴿مَرَدَّنَآ﴾ دون الإفراد (مردي):

مردُّ جميعِ المخلوقات إلى اللّه تعالى، للحساب والجزاء

جاء التَّعبير القرآنيُّ بلفظ ﴿مَرَدَّنَآ﴾ دون أن يقول: (مردّي) مع أنَّ سياق الآية بالإفراد في قوله: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ﴾؛ لأنَّ المقام مقام ترهيب وتخويف، ولأنَّ مرجع جميع المخلوقات إلى اللّه وحده، فهو المالك لها يبسطها، ويقبضها، وينشرها، ويطويها، وأنَّ جميع النّاس سيرجعون إلى اللّه للحساب والجزاء في الآخرة، ومنهم المسرفون؛ إذ يلقون جزاء كفرهم وضلالهم[1].

نكتةُ الإضافةِ في ﴿مَرَدَّنَآ﴾:

سيقفُ الجميع للحساب، فهنيئًا للمطيعين، وبعدًا للمسرفين

إضافةُ المَرَدِّ إلى ضميرِ المتكلِّم المجموعِ في قولِهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ لزيادةِ التَّنصيصِ على أنَّهم مردودونَ جميعًا إلى اللّهِ، وهذا يشملُ المؤمنَ، ويشملُ غيرَهُ ممَّن يخالفُهُ، ويدعوهُ إلى عبادةِ الأوثانِ.

سرُّ التَّعبير بـ ﴿إِلَى﴾ دون اللّام:

إلى اللهِ تعالى يرجع الأمر كلُّه

جاء التَّعبير القرآنيُّ بـ ﴿إِلَى﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ دون اللّام؛ لأنَّ ﴿إِلَى﴾ لانتهاءِ الغايةِ، وهذا هو المرادُ هنا: لأنَّ مرجعَ الخلائقِ كلِّهم إلى الحسابِ والجزاءِ يومَ القيامةِ، واللّه تعالى هو المالك الحقُّ في ذلك اليوم.

بلاغةُ التَّعبيرِ باسم الجلالةِ دونَ غيرِهِ:

ذو العظمةِ والجلالِ متفرِّدٌ بوجوبِ العبادةِ

عُبِّرَ باسم الجلالةِ دونَ غيرِهِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ لِما يدلُّ عليهِ هذا الاسمُ الجليلُ مِن صفاتِ الكمالِ[2]، والمعنى: وأنَّ مردَّنا إلى اللّهِ العالمِ بكلِّ المعلوماتِ، القادرِ على كلِّ الممكناتِ، الغنيِّ

(1) الخطيب، التفسير القرآنيُّ للقرآن: 12/ 1239.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 78.

عن كلِّ الحاجاتِ، فأيُّ عاقلٍ يُجوِّزُ لهُ عقلُهُ أن يشتغلَ بعبادةِ الباطلِ، وأن يُعرِضَ عن عبادةِ الإلهِ الَّذي لا بدَّ، وأن يكونَ مردُّهُ إليهِ؟[1].

وفي التَّعبير به ترهيبٌ للكفرة والمشركين؛ لأنَّهم سيقفون بين يدي اللّه للحساب، وتسليةٌ لدعاة الحقِّ بأنَّ ما بذلوه سيجدون ثوابه عند الوقوف بين يديه سبحانه.

بلاغةُ عطفِ ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾:

الحكمُ والجزاءُ يومَ القيامةِ للهِ

قولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ معطوفٌ على قولِهِ: ﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ﴾، داخلٌ في حكمِهِ الَّذي هو الثُّبوتُ يقينًا[2]، أو معطوفٌ على قولِهِ: ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّـهِ﴾، ومضمونُهُ متفرِّعٌ عليهِ؛ لأنَّهُ إذا كانَ المصيرُ إليهِ؛ كانَ الحكمُ والجزاءُ بينَ الصّائرينَ إليهِ، فيتعيَّنُ أنَّ المعاقَبَ هم الكافرونَ باللّهِ[3].

نكتةُ توالي المؤكِّداتِ في فاصلة الآية:

لا شـكَّ في خسارةِ المسرفينَ

أُكِّدَ قولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ بـ (أنَّ) واسميَّةِ الجملةِ وضميرِ الفصلِ؛ لتحقيقِ مضمونِهِ، ودفعِ ما قد يتبادرُ مِنَ الشَّكِّ إليهِ[4]، وفي ذلكَ مِن يقينِ المؤمنِ بوعدِ اللّهِ وجزائِهِ ما لا يخفَى، وفيهِ إيقاظٌ للمسرفينَ؛ لعلَّهم يتنبَّهون مِن غفلتِهم.

نكتةُ تعريفِ ﴿ٱلْمُسْرِفِينَ﴾:

جنسُ المسرفينَ محكومٌ عليهِ بالخُسْرانِ

التَّعريفُ في ﴿ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ تعريفُ الجنسِ المفيد للاستغراق، وهو تعريضٌ بالَّذينَ يخاطبُهم مؤمنُ آلِ فرعونَ؛ إذ هم مسرفونَ على كلِّ تقديرٍ، فهُم مسرفونَ في إفراطِ كفرِهم بالرَّبِّ الَّذي دعا إليهِ موسى، ومسرفونَ فيما يستتبعُهُ ذلكَ مِنَ المعاصي والجرائمِ[5].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 520.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 278، ومحمد أبو موسى، آل حم غافر وفصلت، ص: 162.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 155.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 78.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 155.

وفيه إشارة إلى فرعون؛ لأنَّه أسرف على نفسه في دعوى الألوهيَّة، وسياق الآيات التي وردت على لسان مؤمن آل فرعون يؤكِّد ذلك، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ ٢٨﴾ [غافر: 28]، وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ ٣٤﴾ [غافر: 34]؛ فتكرارُ كلمة المسرف والمسرفين في كلام المؤمن ليست بمعزلٍ عمّا يراه من إسراف فرعونَ في كلِّ أمره في الكذب والكِبر والضَّلال[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بالإسرافِ:

تجاوزُ قومِ فرعونَ في الكفرِ والمعاصي

عُبِّرَ بالإسرافِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾؛ لدلالتِهِ بحسَبِ وضعِهِ على تجاوزِ قومِهِ الحدَّ في الشِّركِ والعصيانِ[2]، وغُلوِّهم في ذلكَ[3]، فهُم مداومونَ عليهِ، ومصرّونَ عليهِ، بل يدعونَ غيرَهم إليهِ[4]، ولذلكَ استوجبوا النُّصحَ والإرشادَ.

بلاغةُ القصرِ:

المشركونَ وحدَهم أهلُ الخلودِ في النّارِ

في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ قصْرٌ بتعريفِ الطَّرفينِ وتوسيطِ ضميرِ الفصلِ، وهو قصْرٌ ادِّعائيٌّ؛ لأنَّهم المتناهونَ في صحبةِ النّارِ بسببِ الخلودِ، بخلافِ عصاةِ المؤمنينَ[5].

دلالةُ التَّعبير بقوله: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾:

المسرفونَ مستحقّونَ للنّارِ، ملازمون لها

جاء التَّعبير القرآنيُّ بهذا التَّركيب: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ دون (وأنَّ المسرفين في النّار)؛ لوجود فرق بينهما، فكلمة ﴿أَصۡحَٰبُ﴾ تعني أنَّهم ملازمون للنّار ملازمةَ الشَّيء لما هو في صحبته، وما هو في حوزته وملكه، وكأنَّهم بإسرافهم صاروا أصحابها وأولى النّاس بها[6].

(1) محمد أبو موسى، آل حم غافر فصلت، ص: 162.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 78.
(3) عبد الرحمن حبنكة، معارج التفكر ودقائق التدبر: 12/ 382.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 520.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 155، وحبنكة، معارج التفكر ودقائق التدبر: 12/ 383.
(6) محمد أبو موسى، آل حم غافر فصلت، ص: 162.

دلالةُ الإضافةِ في قوله: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾:

إسرافُهم سبب خلودهم في النّار

إضافةُ الأصحابِ إلى النّارِ في قولِه تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ إضافةٌ مجازيَّةٌ، جُعِلوا - لشدَّةِ استحقاقِهم النّارَ - أصحابَها ومالكيها، كالإضافةِ في قولِهم: أبناءُ السَّبيلِ[1]، فإن أُريدَ بالمسرفينَ الكفرةُ؛ فالملازمةُ بمعنى الخلودِ في النّارِ، أي: يخلدون فيها لا يفارقونها، كما يقتضيه معنى الصُّحبة؛ لأنَّ إسرافهم اقتضى إسراف ملازمتهم للنّار الَّتي طبعها الإسراف[2]، وإن أُريدَ بهِم ما يشملُ العصاةَ؛ فالملازمةُ شاملةٌ للمُكْثِ الطَّويلِ[3].

نكتةُ تعريفِ ﴿ٱلنَّارِ﴾:

تعريفُ ﴿ٱلنَّارِ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ للعهدِ؛ لأنَّ المرادَ بها نارٌ معهودةٌ، وهي نارُ الآخرةِ.

بلاغةُ إيجازِ الحذفِ:

الخلودُ في النّارِ يكونُ بعدَ الحسابِ والقضاءِ

في الآيةِ إيجازٌ بحذفٍ أكثرَ من جملةٍ بينَ قولِه تعالى: ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾، وقولِه: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾؛ فالمَرَدُّ لا يَعْقُبُهُ ملازمةُ المسرفينَ للنّارِ، وإنَّما هناكَ حسابٌ، وهناكَ وضعٌ للكتابِ والميزانِ، ومجيءٌ بالنَّبيّينَ والشُّهداءِ، وقضاءٌ بينَهم بالحقِّ إلخ... وكلُّ هذا قد طويَ، وسرُّ هذا الطَّيِّ أنَّ المقصودَ الوصولُ بالتَّرهيبِ إلى غايتِه، فبادر الكلام إلى ذكر هذه الصّورةِ البالغةِ التَّخويفَ، وهي أنَّ المسرفينَ هم أصحابُ النّارِ، وليسَ هناكَ عبارةٌ تردعُ، وتكفُّ، وتزجرُ عن الإسرافِ كهذهِ[4].

بلاغةُ فاصلة هذه الآية:

التَّحذيرُ من سوءِ مآلِ الشِّركِ والمشركين

تظهر بلاغةُ هذه الفاصلة في تلخيص ما أراده مؤمن آل فرعون

(1) ابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 71.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 79.
(3) الخفاجي، عناية القاضي: 7/ 373، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 325.
(4) أبو موسى، آل حم غافر وفصلت، ص: 162.

في محاورته مع قومه، وذلك بتحذيرهم ممّا هم فيه من الشِّرك والجهل، وتخويفهم من مغبَّة ذلك، وهو عذاب الله تعالى.

سرُّ عدم ذِكر المحسنين في مقابلة أصحاب النّار:

لم يذكر القرآن الكريم هنا جزاء المحسنين، وهو الفوز بالجنَّة في مقابلة عقاب المسرفين بالنّار؛ لأنَّ الموقفَ موقفُ إنقاذ وتخليص لهؤلاء الهلكى من هذا الضَّلال الَّذي هم فيه، فإذا خلصوا من النّار، فذلك كسب عظيم؛ لأنَّ الَّذي تعلق به النّار لا يعنيه شيء أكثر من أن يتخلَّص منها، وأيضًا؛ لأنَّ دفْعَ المضارِّ مقدَّمٌ على جلب المصالح[1].

(1) الخطيب، التفسير القرآنيُّ للقرآن: 12/ 1240.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والخمسون،
سورة الزُّمر من الآية 73 إلى سورة غَافِر الآية 76
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والخمسون، سورة الزُّمر من الآية 73 إلى سورة غَافِر الآية 76
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 51 ، 822 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-642-97-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 51 : المجلد الحادي والخمسون، سورة الزُّمر من الآية 73 إلى سورة غَافِر الآية 76.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-642-97-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4644027 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»